فلسفة سقراط

صالح مخائيل

(جامعة لندن)

وكيل مصلحة التجارة بوزارة التجارة والصناعة

فلسفة سقراط

قد لا نكون مبالغين إذا اعتبرنا أن الفلسفة الأدبية والفلسفة السياسية من ابتكار قدماء اليونان منذ نحو ٢٣٠٠ عام — وقد تقدمت المدنية البشرية من ذلك العهد البعيد وعلى الأخص المدنية الغربية تقدماً مطرداً مصحوباً بالابتكارات المستحدثة فى جميع نواحى الحياة سواء فى الطب أو الهندسة أو الكيمياء أو علوم الطبيعة وحتى فى العلوم الاقتصادية لدرجة أن أصبحت الحياة الحديثة تختلف كل الاختلاف عن الحياة القديمة — أما فى عالم الفلسفة والسياسة فإننا مازلنا نسترشد بآراء فلاسفة قدماء اليونان مثل سقراط أو أفلاطون أو أرسطو فإذا درسنا الفلسفة اليونانية القديمة أدبية كانت أو سياسية نجد أننا لم نزد عليها من جديد يستحق الذكر على ممر هذه الثلاثة والعشرين قرناً فكل ما كتب من بعدها يرجع فى أساسه إلى تلك الفلسفة .

قلنا إن ذخرنا الفلسفى والسياسى يرجع فضله إلى قدماء

اليونان وعلى رأسهم سقراط وأفلاطون وأرسطو ولكن هذا الذخر الفياض قد سبقته محاولات فلسفية محدودة الأفق منها فلسفة شعراء اليونان ثم فلسفة حكمائهم ثم الفلسفة السوفسطائية فقد نظم الشعراء بعض المبادىء الأدبية والدينية اليونانية فى قصائد تعلم منها الشعب اليونانى الفرق بين ما هو عدل وما هو ظلم وبين المشرف والمشين ولكنه حفظها عن طريق الشعر الموزون والأغانى الشعرية حتى صار من العسير على الآثينى أن يرتجى الخير ممن كان قبيح الصورة أو يتوقع الشر من الجميل وحتى كلمة الفضيلة باليونانية معناها فى الواقع التفوق ويقصد به التفوق فى رشاقة الجسم ورقى النفس ورجاحة العقل .

تلى الشعراء الحكماء وهؤلاء شخصيات غامضة بجدهم طوراً سياسيين وطوراً مشرعين وطوراً علماء وسواء أكانوا هذا أو ذاك فقد وضعوا الحكمة العامية فى شكل « أمثال » و « حكم » راج بعضها وأصبح من المبادىء الأساسية للفلسفة اليونانية التى تلتها ، ومن أهم هذه « الأمثال » العبارة المأثورة « اعرف نفسك بنفسك » .

وحتى ذلك العهد لم تكن الفلسفة الأدبية وقد وُجدت

كموضوع قائم بذاته له أبحاثه المستقلة — وفى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد تجمعت الظروف التى أحدثت الثورة الفكرية السقراطية — وظهرت عوامل التفكك فى المدنية اليونانية من جميع نواحيها سياسياً ودينياً واجتماعياً حتى أصبح نظام الحكم أقرب إلى الفوضى منه إلى أى نظام آخر ، وكانت السلطة العليا ممثلة فى جمعية عمومية من جميع المواطنين أى أن كل مواطن كان يصلح للحكم وللبت فى مسائل الدولة — أما شئون القضاء فكان ينتخب لها بالقرعة ٥٠٠ قاض دون تفرقة أو تمييز — وكانوا يتناولون مرتبات من خزانة الدولة مقابل أعمالهم القضائية — أما العقائد الدينية فقد بدأت تظهر تدريجياً كمجموعة خرافات ، كذلك انغمس الشعب الأثينى فى الترف وزادت بذلك عوامل الفساد فى المجتمع .

فى هذه الظروف وفى هذا الوسط ظهر السوفسطائيون وزادوا بتعاليمهم الفساد فساداً ودفعوا بالنشء الآثينى إلى هوة الانحطاط فالسرور والمتعة والملاذ كانت عماد مبادئهم الأدبية والقوة والبطش كانت شعار مبادئهم السياسية وكان العدل فى نظرهم نوعين عدل طبيعى وعدل القانون — فالعدل الطبيعى هو الحظوة

بالملاذ وقدرة النفس على إشباع شهواتها — ولما كان الناس يختلفون قوة في معترك الحياة يقهر القوى الضعيف ويفوز بمتاعه — أما العدل في نظر القانون فهو الحد من قوة القوى وفرض احترام حقوق الضعيف عليه فالمناداة بالمساواة بين القوى والضعيف وحث الإنسان على مقاومة ملاذه وشهواته الطبيعية كلها ضروب من السخف والضعف — ولماذا يقيد الإنسان نفسه إلى حياة لا طعم لها في حين أن الطبيعة أعطته عدة سبل المتعة — وإذا ما تخلصنا من التقاليد العقيمة سخرنا من الحِكَم التي ابتدعها الضعفاء كأن يقال إن « الأفضل للانسان أن يحتمل الظلم من أن يأتيه » .

وجدت هذه الفوضى وتلك المبادىء الخطيرة الجارفة في سقراط الشخصية التي تحللها وتهدمها وتنشئ على أنقاضها تعاليم جديدة ومبادىء سامية لم يفهمها في عهده سوى القليلون — ولكنها زودت العالم من بعده بأعظم تراث فلسفي وزاد هذا التراث شأناً وروعة أن مناداة سقراط بالحق وخذلانه للباطل أكسبته أظلم الجزاء وأبغضه وهو الحكم عليه بالإعدام ولكن لا عجب في ذلك فالويل كل الويل لمن حاول أن يعلم الناس

أكثر مما يفهمون .

وُلد سقراط فى أثينا فى سنة ٤٦٩ قبل الميلاد من أبوين متميزين وكان أبوه سفرونسك النحات صانع التماثيل وأمه « فيناريت » القابلة وطبقاً لقوانين البلاد تعلم سقراط الطفل ما كان مقرراً أن يتعلمه أطفال أثينا فى ذلك العهد أى « الجمباز والموسيقى » ومعناها الآثينى التربية البدنية والتربية الروحية وفضلا عن التمرينات الرياضية بدأ سقراط ثقافته العقلية بتهجئة درر وفرائد مشاهير شعراء اليونان مثل هومير وهيسيود وغيرهما .

لم تكن آلة الطباعة قد اكتشفت بعد وكانت جميع المجلدات مخطوطات يدوية فنسخ سقراط تحت إملاء أستاذه نصوص الإلياذة والأوديسية وغيرهما ليحتفظ لنفسه نسخة منها — حفظ سقراط هذه الأشعار عن ظهر قلب وفهم التفسير النحوى لكل بيت منها واستوعب معانيها الأدبية وجمالها الشعرى ومنها تدرج إلى دراسة أشعار أخرى أصعب منها تركيباً وأعقد منها فهماً .

وفى الثامنة عشرة من عمره التحق بالكلية الحكومية المعدة لتعليم النشء بالمجان تعليما سياسيا وحربيا ودينيا ومدتها

سنتان ويقصد بها فترة تلمذة ومران إجبارى على الفضائل المدنية وما أن بلغ سقراط العشرين من عمره حتى كان قد زود بالقسط الضرورى من المعرفة العقلية والنضوج الروحى والتربية البدنية اللازمة له كمواطن آثينى .

بدأ سقراط بعد ذلك الاشتغال بحرفة النحت وصنع التماثيل إطاعة لرغبة أبيه ونسجاً على منواله فى الحياة العملية — ولكن بعد فترة قصيرة هجر سقراط هذه الحرفة إلى غير رجعة — ولا غرابة فى ذلك فمنذ نعومة أظفاره كان قد أظهر رغبة شديدة فى التفكير العلمى والفلسفى وقال عن نفسه « عندما كنت فى مقتبل العمر كنت شديد الرغبة لدرجة لا تصدق فى درس علوم الطبيعة وكنت أعتقد أن ذروة الرفعة هى فى الوقوف على سبب كل شىء ومعرفة كيف تولد الأشياء وكيف تنمو أو تضمحل وكيفية كيانها ولكن بعد كل هذه الأبحاث تبينت أنى أكثر جهلا مما كنت من قبل » .

ألمّ سقراط بأهم المبادىء الفلسفية التى سبقته سواء منها ما يستند إلى أسس طبيعية أو رياضية وقد سلم مع « أنا كساجور » بأن الذكاء هو أصل الأشياء وأساسها بمعنى أن أصل الخليقة

ليس تمادى بل عقلى وأن نظام هذا الكون منسوب الذكاء وهو القوة الدافعة للعوامل الطبيعية ولكن زاد سقراط على ذلك بأن أضاف فكرة الخير إلى فكرة الذكاء المهيمن على القوات الطبيعية أو بعبارة أخرى أن سبب الأشياء هو إتمام الغرض الحسن والمفيد الذى وجدت من أجله وهدف الحياة يجب أن يكون الفضيلة والحكمة وبهذا ارتقى سقراط بموضوع الفلسفة من علوم الطبيعة والرياضة إلى الفضيلة التى تبحث فى علاقة الأشياء والأعمال بالخير وأن جهلنا بالخير هو الذى يسبب لنا المآسى والشرور وخلاص الدولة وتقدمها سواء بسواء كخلاص الفرد ورفعته هما فى العلم والمعرفة فطالما قال سقراط « علموا الناس العلم الصحيح تصلوا بهم إلى الذروة » ولذا وهب سقراط حياته كاملة ليبين للأثنيين وبالتالى للعالم فيما بعد ضرورة العلم الصحيح للفرد وللشعب — وهذا التوجيه الجديد للفلسفة قد رفع سقراط على مرتبة جميع الفلاسفة السابقين له وأن صح ما قاله سيسرون عن سقراط بأنه أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض — فإن سقراط لم يكشف للعالم عن سماء منظورة ملموسة بل كشف عن سماء غير منظورة وهى الضمير البشرى ضمير الإنسان .

وهـذا الأساس الفلسفى الجديد ونعنى به معرفة الضمير وطهارة الضمير كان على نقيض لما عَلّم به السفسطائيون ونتساءل الآن من هم هؤلاء السادة ؟

فى الفترة بين سنة ٤٤٠ وسنة ٤٣٠ قبل الميلاد ظهر فى أثينا قوم من أصل أجنبى أطلقوا على أنفسهم اسم السفسطائيين — والمعنى الأصلى لكلمة سفسطائى هو حكيم واحترف هؤلاء صناعة تدريس النشء ولقبوا أنفسهم بهذه الكلمة كأنهم أساتذة الحكمة مدّعين أن سبلهم التعليمية تُخرج رجالا يحسنون صناعة الكلام متصفين بالشجاعة غيرهيابين وجديرين بالنجاح فى الحياة وإحراز السعادة لأنفسهم . وقد أغرت دعايتهم بعض الشباب الطموحين لإحراز النفوذ وجمع الثروة — أما المواطنون الذين كانوا يغارون على احترام العقائد القديمة وقواعد التخلق المأثورة ، فكانوا ينظرون لهؤلاء السفسطائيين بعين الريبة وسوء الظن وقد جعل هؤلاء المحترفون من التشكك فناً له قواعد ونظريات ولم يعترفوا بصفة للعقل الخالص سوى مكنته على التشكك وإذا سلمنا بأنه ليس فى إمكان التفكير الخالص الوصول إلى حقيقة خالصة من كل

شك فقد تساوت إذن وجهات النظر المختلفة من حيث الحياة العملية — والمرشد الوحيد لاختيار الإنسان لطريقة فى الحياة هو مجرد صالحه الشخصى فالتفكير والتعقل والتروى فى الحكم على الأشياء ما هى إلا وسائل وأدوات للوصول إلى غرض واحد وهو النجاح فى الحياة فتردد التفكير النقى المخلص ووخزات الضمير الحى ما هى فى نظر السوفسطائيين إلا ضروب من الضعف لا نتيجة لها سوى الفشل والذل — فالشرف والفخر للقوى المتأنق والخجل والهوان للضعيف المتردد والفضيلة فى نظرهم كالرزيلة سواء بسواء يتوقف مقياسها وقيمتها على ما تحرزه من نجاح فى الحياة العملية فالسعادة عن أى طريق و بأى وسيلة هى العدل والشقاء هو الظلم ويجب أن نخضع كل اعتبار وكل شىء للفائدة الشخصية دون غيرها .

هذه تعاليم لا شك أنها شريرة لا تهذب الخلق فى شىء ولا تعمل على ازدهار المجتمع من أى ناحية وأكثر من هذا كان السفسطائيون يتقاضون أجوراً عن دروسهم التعليمية بغية الإثراء من وراء حرفتهم « كأساتذة الحكمة ! » وهل من شك فى أن من باع آراءه قد لوثها وأفقدها رفعتها وكرامتها

وحريتها إلى وضعها فى مصاف السلع المادية — فثروة الذكاء والتفكير المخلص المصلح لا تباع كحطام الثروة المادية لأنها تكون شخصية صاحبها فهى كيانه الروحى فكيف تكون موضع مساومة وبيع وشراء دون أن تفقد قيمتها الأخلاقية ودون أن يتحط صاحبها ؟ وكان السفسطائيون بحكم حرفتهم « كتجار للحكمة والعلوم » مضطرون لتقديم سلعهم فى أشكال تتفق وأذواق مشتريها يروجونها كما يروج التاجر سلعته وأسهل عليهم أن يلبوا على شهوات زبائنهم من أن يصلوا إلى ضمائرهم وقلوبهم فيقدمون لهم الرذيلة فى شكل أحب من الفضيلة فالإفراط فى الشهوات لا يحتاج إلى مجهود — أما الاعتدال فهو الذى يحتاج إلى مجهود نفسانى وعقلى .

وقد عارض سقراط السفسطائيين وأصبح لهم عدوا عنيداً متمسكا بالحق والفضيلة فى عقيدة وإيمان لا لأى غرض شخصى أو صالح ذاتى سوى توطيد سبيل الحياة القويمة ونعتهم بأنهم أعداء الخير والفضيلة وأنهم خطر على الشعب الآثينى والتفكير اليونانى ووهب حياته لمحاربة الباطل والمناداة بالحق مهما كلفه الأمر — ولكن من سخرية القدر أن يكون سقراط عدوا

السفسطائيين إلى هذا الحد ويتهمه بعض الآثينيين بأنه شبيه بهم وهو « معلم للحكمة » ولكن هذا الشبه مع فارق فى الجوهر والمعدن فهم يعلمون الرذيلة وهو يعلم الفضيلة وهم يؤيدون الباطل وهو يؤيد الحق هم يسعون للاثراء من وراء تعاليمهم وهو يعلم بالمجان . لا ربح له سوى ثمرة تعليمه .

لم يفتتح سقراط معهدا علميا فى مكان معين كأكاديمية أفلاطون أو ليسيوم أرسطو ، بل كان يتجول فى أنحاء أثينا وفى طرقاتها وحدائقها العامة وعلى شواطئها وفى أسواقها العامة وعلى الأخص الأمكنة التى كان يرتادها أكبر عدد من الناس ليباحثهم ويناقشهم فى مختلف المواضيع الجوهرية للحياة إن أدبية أو اجتماعية أو سياسية متعرضا لكل هذه المواضيع بكل شجاعة وثقة فى النفس دون اكتراث بالتقاليد أو مراعاة لنفوذ وبأس الشخصيات التى يمسها هذا الحوار ولغير غرض فى نفسه سوى الإخلاص المطلق لمواطنيه وللبشرية ولم تكن تغريه أية شهوة فى النفس كما لم تؤثر فيه أية سلطة لتعديل مبادئه أو الإقلاع عن نقده المصحوب بالسخرية لكل ما هو معيب أو ظالم — كانت عدة سقراط وسلاحه فى نضاله الإخلاص الذى خصص

له حياته وقوة إيمانه بالحق و بغضه للباطل و براعته فى الحوار والمناقشة وطهارة نفسه ونقاوة مخلقه — ولم يكن سقراط حسن المنظر أو رشيق المندام كما لم يكن خطيباً وهذه كلها أوصاف استعان بها السفسطائيون للتأثير على الشبيبة الآثينية .

كان أغلب الآثينيين فى عهد سقراط أجهل من أن يقدروا قيمة مبادئه وتعاليمه أو يفطنوا إلى أنها لا محالة محدثة ثورة فى الأفكار ولو بعد حين — هذا فضلا عن أن مظهره الخارجى وسحنته و بعدهما عن الجمال والرشاقة قد أبعدا الشقة بين تعاليمه و بين نفوس مواطنيه — فاليونانى وعلى الأخص الآثينى فى ذلك العهد كان يتأثر قبل كل شىء بالجمال والتناسق والرشاقة وقد وصف المؤرخون عهد قدماء اليونان هذا بعهد الشبوبة والجمال كما وصفوا عهد الرومان بعهد الرجولة والصرامة والواجب وكان الآثينى سريع الإحساس والتأثر بكل ما هو جميل ومتناسق — لدرجة يصعب علينا أن نستسيغها — فبحكم نشأته وتربيته و بيئته كان يشق عليه أن يدرس الخير والطيبة والحقيقة المطلقة دون اعتبار للجمال الخارجى أو يتخيل نفساً جميلة عظيمة فى جسم قبيح كما يعتقد أن الفكرة النبيلة لا يمكن أن يُعبر عنها

إلا بلغة بليغة وأن أعمال الفضيلة تتنافى مع الحركات الغليظة غير الرشيقة — فكيف يتيسر لسقراط بوجهه المعيدى وحركاته الغريبة وتعبيراته المادية أن يجد حظوة لدى غالبية مواطنيه — ونحن إذ ندرس سقراط الآن بعد مضى ٢٣ قرنا حين خاطب مواطنيه فى أثينا نجد أنه أقرب إلى نفوسنا وقلوبنا مما كان لمعاصريه بجمال الفضائل العميقة وجمال النفس الطاهرة التى ندركها بقلوبنا وعقولنا لم نجد سبيلا لنفس الأثينى فى ذلك العهد الذى كان يتأثر بالجمال المنظور بالعين والمسموع بالأذن قبل أن يتأثر بالجمال النفسانى . ومع ذلك لم يجد سقراط فى قبح منظره ما يدعوه إلى الخجل أو يدفعه إلى التوارى بل على عكس ذلك قد اعترف بهذه الحقيقة فى مزاح واستهتار ممزوج بعلو النفس ونضوج التفكير والثقة فى بلوغ الهدف رغم كل العقبات — وإنا لنتساءل لماذا أحبه تلاميذه الأخصاء ووقروه وأعجبوا به إلى هذا الحد ؟ — الحقيقة أنه كان رجلا شهماً شجاعا وفيلسوفا حقا وحكيما فى غير غرور فلم يكن « محترفا للحكمة » ، بل كان من « غواتها » وقد التفت حوله فئة جمعت مختلف الألوان فمنهم من كان مثريا مثل أفلاطون

والسيباديس Alcibades وقد بهرتهم انتقادات سقراط لنظم الحكم الآثينية ومنهم من كان اشتراكيا مثل انتريثمس Antristhems الذى سحره عدم اكتراث أستاذه بالفقر ومنهم من كان فوضويا مثل أرستيبوس Aristippus الذى كان يود أن يرى العالم دون تفرقة بين سيد ومسود ولا يأبه بمتاعب الحياة المادية كأستاذه — وفى هذا الوسط ناقش سقراط جميع المسائل التى لا تزال للآن موضع تفكير المجتمع البشرى من مواضيع فلسفية أو اجتماعية أو سياسية — كما وضع أساساً جديداً للفلسفة الأدبية للعالم المتمدين .

لم يكن سقراط خطيباً مفوهاً ولكنه كان أستاذاً فذاً فى فن الحوار فكان يلقى أسئلته على سامعيه بشكل يضطرهم إلى الإجابة . كما كانت لهجته لا تتغير ولا تتبدل سواء أكان يتحدث إلى شخص عادى فقير أو مثر كبير أو لقائد حربى عظيم أو لأستاذ أو لتلميذ بسيط وكان يبين لهم أخطاءهم أو جهلهم فى صراحة دون أدنى تحفظ أو تردد .

وكان سقراط متزوجا من امرأة تسمى اكسنانب Xantippe امتازت بقسوتها وغلظة أخلاقها وكانت خصومتها وشجارها

معه حديث الناس — ولكن سقراط احتملها فى صبر جميل وقد أبدى له بعض أصدقائه مرة استغرابهم لاحتمال مساوىء هذه المرأة التى لا يمكن لإنسان أن يشاركها الحياة ، فأجاب فى بساطة وسخرية بأن من يود أن يكون فارساً يجب ألا يقتصر على ركوب الجياد الهادئة السهلة القيادة بل كذلك الجياد الجفولة صعبة القيادة ، وأنه (أى سقراط) يود أن يعيش مع الناس جميعاً على اختلاف طبائعهم ولو أمكنه احتمال زوجته سهل عليه احتمال أى شخص آخر مهما كانت سليقته .

وقلّ من الآثينيين من أدرك عظم نفس سقراط وحتى سقراط نفسه لم يكن يدرك حقيقة نفسه ومقدار ما أوتى من حكمة ، وقد اعترف أنه فى حداثة سنه كان يميل إلى الحركة والمسرات العنيفة أكثر من السكون والهدوء — وقد قبض على ناصية الفلسفة الأدبية من جراء صراعه ضد شهواته الجسمية وقد تعلم ببصيرته أن يقى نفسه شر نفسه وأن ينزع بفضل قوة إرادته كل ما كان يتعارض مع المثل الأعلى للخلق الشريف .

وقد كان لحادث عرضى بسيط الفضل فى توجيه تفكير سقراط إلى رسالته كمعلم ومُثقِّفْ وذلك أنه عندما بلغ حوالى الأربعين

من عمره حدث أن خطر لصديقه شيروفان Cherephan وقد كان وقتذاك فى دلفى أن يسأل العرافين Oracle عما إذا كان يوجد فى العالم رجل أحكم من سقراط فكان الجواب بالنفى — فلما بُلغ ذلك لسقراط كان بمثابة إيحاء له ليدرك رسالته فى الحياة وقد اعتبرها واجباً مقدساً عُهد به إليه وهو واجب العمل بكل ما أوتى من قوة إرادة وحدة تفكير على إنارة الضمائر و إيقاظها وأن يجعل من كل إنسان رقيباً من نفسه على نفسه وفاحصا ومراجعا لأعماله واتخذ لذلك شعاراً العبارة المنقوشة على واجهة معبد دلفى وهى « اعرف نفسك بنفسك » . Connais - toi . « toi - meme.

فمن فهم حقيقة نفسه عرف ما هو مفيد له وأمكنه أن يميز بين ما يمكنه قبوله وما يجب عليه رفضه وأن يُقْدم على ما يمكنه عمله وأن يبتعد عما ليس فيه خير وبهذا يحفظ نفسه من الخطأ ويقى نفسه من الشقاء و بنفس هذه الطريقة يمكنه أن يحكم على الآخرين و يستفيد من فهمه لهم سواء فى إحراز الخير أن تفادى السوء — أما من لا يعرف نفسه حق المعرفة ومن أساء استعمال قواه فلن يتيسر له فهم الآخرين ولن يحكم على الأشياء حكما

صحيحاً ولن يتبين ما يتلاءم معه ولن يدرك ما يجب عليه عمله ولا السبل التى يجب اتباعها ويخطئ فى كل شىء وتفلت منه كل الفرص المؤاتية ولا محالة يصيبه الشقاء .

كان سقراط رسول التفكير والتأمل وكان أول من نادى بمبدأ استقلال العلوم والفلسفة فسلطان العقل والتفكير فوق قوة التقاليد وهو يدعو كل منا لأن يمتحن ضميره وهذا أساس المعرفة ومصدر القوة فالمعرفة قوة Savoir C'est pouvoir وكل ما عمله الإنسان كمجرد عادة أو جريا على التقاليد المتبعة أو تحت تأثير الضغط أو الإجبار لا قيمة له ما لم يمليه سلطان التفكير الحر وهو السلطة الوحيدة التى يصح أن تفرض على النفس — على أن التشكك يجب ألا يكون سفسطائيا بل كمجرد وسيلة للوصول إلى الحقيقة والرغبة فى معرفة الخير وفى وجوب اتباعه كذلك لم يقبل سقراط قضية دون تعرف عليها الحقيقة فلم تقنعه مجرد ظواهر الأشياء بل كانت تثير رغبته فى تعرف حقيقتها وهناك أوصاف تميز الحقيقة من الخطأ فالحقيقة مفيدة أما الخطأ فلا فائدة فيه كما أن الحقيقة سبيل العمل الناجح — أما الخطأ فلا بد من فشله إذا ما حاول الإنسان تحقيقه . فالحقيقة سبيل سواء

للتخلق وللعمل — ومعرفة حقيقة أى شىء هى عبارة عن تحديد الغرض منه والوقوف على الأغراض التى يصلح لها وعلى ذلك فالمعرفة قوة وسلطان .

على أن سقراط يرى فى الطبيعة عالمين مختلفين عالم المعرفة والعلوم الفنية وعالم الظاهرات التى لا يمكن إخضاعها لمداركنا فهناك مواضيع فى مقدور العقل البشرى فهمها وتحديد أوضاعها وأخرى لا تقوى عقول البشر على استيعابها فالإدراك البشرى محدود وبالتالى فالعلوم والمعرفة البشرية محدودة وليس فى مكنتها أن تفحص سوى المسائل المحدودة الأوضاع فمثلا ليس فى مقدور العقل البشرى أن يتكهن بالمستقبل مهما أمعن فى تطبيق علومه ومعرفته — فمن زرع حقله طبقاً للأصول والمبادئ الفنية الزراعية جنى ثمراً جيداً ، ولكن هل هو واثق من أنه هو الذى سيجنى هذه الثمار دون غيره ؟ — والمعمارى الذى يشيد منزله على أصح الطرق الهندسية هل يضمن أنه سيقطنه دون سواه ؟ والشاب الذى يقترن بفتاة جميلة طمعاً فى تذوق السعادة معها وعن طريقها هل هو واثق من أنها لا تجلب عليه الشقاء ويكون جمالها وسحرها سبباً فى تعاسته ؟ فكل من اعتقد أن فى مقدور

الذكاء البشرى التكهن بالمستقبل فهو أحمق .

على أن الحياة لا تستقيم إلا بالتفكير الصحيح وأن جميع العلوم مفيدة للحياة الطيبة غير أن أهم العلوم جميعاً هو علم الفضيلة أى معرفة الخير من الشر والعدل من الظلم والمشرف من المشين وهذا العلم يمتاز عن جميع العلوم الأخرى لأنه يبين لنا علاقة أغراض وأهداف جميع تلك العلوم ببعضها بغية الوصول إلى غرض أسمى وهو السعادة والحياة السعيدة فمعرفة الفضيلة هى إذن الحكمة الحقة والعلم الرفيع وموضوع هذا العلم فى نفوسنا وليس بخارج عنها — ولمعرفة العدل من الظلم أو التمييز بين الخير والشر لسنا فى حاجة إلى فحص الأجرام السماوية أو الظاهرات الأرضية أو قياس أعماق البحار بل أن كل ما نحتاج إليه هو مراجعة نفوسنا وفحص قلوبنا وضمائرنا وبذا نعرف ما يجب أن نعمله وما يجب أن نبتعد عنه وما هو خليق بأن نرغب فيه وما يجدر بنا أن نرغب عنه وهذه شروط السعادة وأساسها التفكير المستقيم المنزه — فأكبر الحكمة هى ترقية وتهذيب الضمير ولا ينقص الإنسان الذكاء ولا المقدرة على التفكير بل أن ما ينقصه هو ، أما التفكير العميق المنزه

أو الخضوع للتفكير المغرض السيئ . و إمعان التفكير القويم يبرز فينا المعرفة الكامنة في نفوسنا والتي جبلت عليها النفس البشرية وبالتالي نصل إلى معرفة شروط وأوضاع سعادتنا الحقيقية وكل الأعمال المنبعثة عن الجهل أو المبنية على مجرد الحدس والظن هي أعمال عمياء ضارة — أما التفكير الصحيح فهو شرط أساسي للحياة الطيبة السعيدة والغريب أن الناس في علاج أجسامهم أو إصلاح حقولهم أو تربية أبدانهم يستشيرون الأطباء وعلماء الزراعة وخبراء التربية البدنية ويتبعون مشورتهم أما في انتهاج سبل الحياة والسعي وراء السعادة فكل يعتقد أنه خبير بذلك في حين أنه يجهل ما هو في أشد الحاجة لمعرفته والأغرب من ذلك أنه يكابر ولا يعترف بجهله ومن السخف أن يركن الإنسان إلى الحظ المواتي لأن الحظ لا يخضع لأحكام البشر — ويتوقف اختيار الإنسان للأشياء والأعمال على ما يعلقه عليها من قيمة وما ينتظر منها من نتائج فإذا غدت سيئة فذلك راجع في غالب الأحيان إلى سوء التقدير وخطأ التفكير — فالمعرفة قوة والجهل ضعف .

لا يقوم الإنسان بأي عمل حبا في العمل نفسه بل رغبة

فى نتيجة معينة يود الوصول إليها فالمريض لا يتعاطى الدواء حباً فيه بل رغبة فى الشفاء والتاجر يجوب البحار ليس حباً فى أخطارها بل سعياً وراء الربح والثروة — وجميع الأشياء فى العالم أما أن تكون طيبة أو رديئة أو أنها فى بعض الأحيان طيبة وفى بعضها سيئة فإن اتفق الناس على أن الحكمة والصحة والثراء تقع ضمن الأشياء الطيبة وأضادها تقع فى عداد الأشياء السيئة — فهنالك حالات لا يمكن اعتبارها طيبة أو سيئة بل أنها طوراً تكون حسنة مرغوب فيها وطوراً تكون رديئة مرغوب عنها فالشّهب يرغب فى الجلوس ومن أطال الجلوس يرغب فى المسير — فإذا قررنا الجلوس فذلك لاعتقادنا أنه مفيد لنا وإذا قررنا المسير فذلك لاعتقادنا أنه صالح لنا وحتى إذا حكمنا على شخص بالإعدام أو النفى فذلك لاعتقادنا أننا نعمل خيراً من ناحية معينة ولوجهة نظر محددة كذلك القتل والنفى لا نلجأ إليهما رغبة فى العمل نفسه بل لفائدة نرجوها من جراء إتيانه — فإتيان الشر إذن ليس رغبة فى مجرد الشر بل لاعتقادنا أن فيه فائدة لنا بشكل من الأشكال أو من ناحية من النواحى فكأن مساوئ الإنسان ناجمة ليس من أنه يختار

السوء بل لأنه يسيء التفكير ويخطئ التقدير فيجعل من مواضيع شهواته مواضيع لإرادته فيسير حيث تقوده حواسه بدلا من أن يسير طبقاً لإرشادات عقله وضميره في حين أن أعلا درجات الحكمة هي أن يحمي الإنسان نفسه من أخطائه وأن يفرق بين ما فيه صالحه حقاً وبين ما يبدو له خطأ أنه في صالحه — فما الرذيلة إلا نتيجة الجهل والسعيد من عرف الفضيلة وطبقها على نفسه وعلى أعماله وهذا يستدعي من النفس مجهوداً كلياً والرجل الشرير يحكم على من أتى الشر مثله بأنه شرير ولكنه لا يرى هو في نفسه الشر أو أنه يحلل لنفسه بأنه يأتي الشر كمجرد وسيلة لأغراض أهم أو لمناسبة معينة أو لظرف معين ولكن الخير والشر لا يختلفان باختلاف الأشخاص فالخير خير للجميع وفي جميع الأوقات والشر شر لجميع الناس وفي جميع الأوقات ومن لا يحكم نفسه بنفسه تحكمه عوامل أخرى — وقد يخضع في بعض الأحيان لثورة الغضب أو لشعور اللذة والسرور أو لشدة الألم أو لعاطفة الحب أو لشعور الخوف والوجل ثم يعلل ضعفه بأن هذا حُكم القدر ولا سلطان له عليه .

الطريقة السقراطية

كانت بعض المواضيع الأدبية مثار خلافات فى التفسير ومفارقات فى الإدراك لدرجة خلقت الكراهيات وطالما اختلف الناس فى إدراكهم لمعنى العدل والظلم والحسن والقبيح والخير والشر وكم فسرت كل هذه الموضوعات الفلسفية الأدبية تفسيرات تتفق ومآرب المفسرين وتتلاءم مع طبيعتهم إن لجهلهم أو لتبرير تخلفهم الملتوى أو للوصول إلى أهداف مُبيتة — بل وأكثر من ذلك ألم تُحدث الآراء المتنافرة فى ماهية الحقوق والواجبات ثورات وحروب داخلية .

ونحن نحكم على عمل ما بأنه عمل عادل أو ظالم قبل أن نعرف معنى العدل أو نحدد أركان الظلم فنتخبط فى مناقشاتنا على غير هدى وننتهى إلى نتائج لا محالة خاطئة .

لهذا نجد أن مفتاح طريقة البحث السقراطية هو ضرورة إيجاد تعاريف صحيحة دقيقة وشاملة لمختلف المواضيع والأشياء — وقد تمتاز تعاريف المواضيع الأدبية عن تعاريف الظاهرات الملموسة فى أن المواضيع الأدبية هى إدراكات عقلية فأركان

تعريف العدل مثلا لا ترتكز على اختيارنا للحقائق المادية بل هى تحديد مثل أعلى نصبو إلى تحقيقه ويرجع الخطأ فى هذا التحديد إلى أنه بالرغم من أن الحقيقة لا تتغير وأن أوضاعها لا تتبدل بل أن الخطأ هو الذى يتغير ويتشكل فإن الإنسان لا يرى فى كل ظرف على حدة الحقيقة بأجمعها وبجملتها بل لا يرى إلا جزءاً منها تبعاً للظروف فإذا عمد إلى تعريف الشجاعة انصرف عقله إلى الاقدام فى ساحة القتال مع أن هذا ليس إلا ضربا من ضروب الشجاعة ولا يشمل الشجاعة بصفة عامة مطلقة وبعبارة أخرى أن تعريف أى فكرة أدبية لا يقصد به تحديد ما نفهمه منها عند تطبيقها على ظرف معين بل تحديد الفكرة فى نفسها وتمييزها من كل ما هو غريب عنها أو تحديد الخواص التى تلازمها أبداً أو بعبارة أخرى الإدراك الكلى لها — فهناك الشجاعة وهى واحدة وهناك العدل وهو واحد — أما ضروب الشجاعة وضروب العدل فكثيرة متعددة

وأساس طريقة التفكير السقراطية هو إعطاء تعاريف للأفكار والأشياء تصلح لتطبيقها على جميع الأحوال الفردية —

من الضرورى أن تعرف ما هو العدل وما هى الفضيلة وما هى الشجاعة ليس فقط لتحكم على فلان بأنه عادل والآخر بأنه فاضل والثالث بأنه شجاع بل لكى تصبح أنت عادلا وفاضلا وشجاعا وهو الأهم فكما أن العلم عبارة عن مجموعة تعاريف صحيحة فالحياة الطيبة ما هى إلا مجموعة تعاريف صحيحة للخلق القويم نفرضها على أنفسنا بأنفسنا وبذلك نحفظ أنفسنا من الذل والرذيلة .

أما الشطر الثانى من طريقة سقراط فهو الحوار وهذه الطريقة التعليمية لا تعدلها طريقة أخرى فى إنهاضها للعقول وإيقاظها لقوة التفكير — فالعقل فى نظر سقراط — ليس كما يبدو لنا محدودا بل هو كل شىء لأنه دائب الفهم والهضم واستيعاب الحديث وابتكار المستحدث فهو دائماً يبرز القوة الكامنة فيه إذا ما توفرت له طرق البحث السليمة والتدريب العقلى الصحيح وطريقة الحوار أفضل السبل للوصول إلى هذه الغاية وإلى معرفة الحقيقة وقد أتقن سقراط هذا الفن التعليمى إتقانا لا مثيل له وبين فى جلاء أن الحقيقة بنت البحث وهى شرر لا يقدحه إلا احتكاك الآراء ببعضها .

الفضيلة السقراطية

يقول « اكسنوفان » إن الحكمة هى مقدرة تعرف أفضل سبل التخلق والعمل وتوفر الإرادة القوية لتفضيل الخير على الشر مع مراعاة أفضلية الخير العام على الخير الفردى والصالح العام على الصالح الشخصى واتباع هذا المبدأ فى الحياة العملية هو الفضيلة وأعمال الفضيلة كلها جميلة ومن عرفها حق المعرفة لا يمكن أن يفضل عليها نقيضها ؛ وطالما ردد سقراط أن الشرير لا يعمل الشر بمحض إرادته ومن ذلك يتبين أن الفضيلة السقراطية مبنية على طريقة قطعية determinisme ولم يُعلِّم سقراط صيغة محدودة للفضيلة البشرية ولكنه قدم لنا طريقة لمعرفة طبيعة الخير ترشدنا إلى الوصول إلى الكمال الداخلى القلبى

وللإلمام بأى علم من العلوم يجب ألا نكتفى بمعرفة النتائج النهائية والأمر الواقع بل يجب أن نلم بالطريقة العلمية الفنية التى بواسطتها أمكن للعلم الوصول إلى هذه النتائج وذلك الأمر الواقع ويجب أن تكون للفلسفة قبل كل شىء طريقة وأن الاقتصار على التسليم بمجرد النتائج مضيعة للعلم

ولما كانت الفضيلة علم من العلوم — وهى أساس الفلسفة السقراطية — فيمكن إذن تعلم الفضيلة — ولما كانت أعمال الإنسان ترمى إلى الحصول على السعادة فلنتساءل : ماهى السعادة ؟ قد يقال لأول وهلة إنها الجمال والقوة والثروة والفخر وما شاكل هذه الصفات المستحبة ولكن كم من مرة أسىء إلى الجمال بعبث العابثين وكم من مرة كانت سعة الثراء سبباً فى الشقاء وكم من مشاهير الرجال لقوا حتفهم عند بلوغهم ذروة مجدهم — فأين السعادة إذن ؟ ليست الصعوبة فى معرفتها بل الواقع أن الصعوبة التى تعترض الوصول إليها ترجع إلى غلطة أساسية وهى أن الإنسان يعتبر بعض متع الدنيا كأنها مطلقة فى حين أنها نسبية فقد يعتبر الإنسان أن الثروة والصحة والفخر والسلطان مرغوبات يبغيها الإنسان لذاتها أى أنها أهداف يود الوصول إليها والفوز بها وكفى ويقدر كل ما عداها بقدر ما يوصله إليها ولكن هذا خطأ إذ الواقع أن جميع هذه المتع يتوقف خيرها على قدر ما تجلبه على الإنسان من سعادة أو على قدر معاونتها للإنسان على تحقيق سعادته فمن الخطأ إذن الخلط بين السعادة والشروط الضرورية لتحقيقها وأخطر من ذلك الخلط

بين السعادة و بين شروط أخرى ليست بضرورية لتحقيق السعادة والوقوع فى هـذا الخطأ يجعل الإنسان لا يفرق بين السعادة و بين الثروة أو بين السعادة و بين القوة والسلطان أو غيرهما — فاذا أبدلنا السؤال ما هى الأشياء الطيبة أو ما هى السعادة ؟ بصفة مطلقة بسؤال آخر وهو ما هى الأشياء الطيبة للانسان ؟ أو ما هى « سعادة الإنسان » فقد تقدمنا فى بحثنا خطوة صحيحة إلى الأمام لأن فى ذلك تحديدا للغرض الذى نبحث من أجله مختلف الأشياء والصفات .

و إذا كان مبحثنا هو « سعادة الإنسان » فإن أساس بحثنا يجب أن يكون تعرف طبيعة الإنسان إذ كيف يتسنى لنا أن نبحث شروط سعادتنا قبل أن نتعرف حقيقة حاجاتنا ورغباتنا و إرادتنا و بذلك نعود إلى الشعار المنقوش على معبد دلفى وهو « اعرف نفسك بنفسك » غير أن هذه المعرفة ليست سهلة سائغة فهى تحتاج إلى تفكير غير متحيز وشجاعة أدبية وقوة إرادة — فما هو الإنسان ! هناك جسم الإنسان وهناك عقل الإنسان ونفسه وهناك الإنسان جسما وعقلا ونفسا أى الإنسان كوحدة واحدة ولما كانت رغبات الجسم عمياء فطرية فيجب إذن أن

يكون الحكم للعقل والنفس لا للجسم ، وأن نفهم ونعرف أنفسنا بأنفسنا كأول شرط للحياة السعيدة بغية تعرف النفس وضرورات الحياة الروحية — أما من اقتصر على معرفة جسمه فقط فقد عرف جزءاً من كيانه ولكنه لم يعرف نفسه كاملة وإذا كانت الحكمة هى معرفة النفس فكأن إتقان الإنسان لمهنته أو حرفته لا يعنى الحكمة بل الحكمة هى نضوج العقل والنفس وهى إعطاء الأوامر للجسم وحفظه داخل حدود الاعتدال والكرامة وعقل الإنسان ونفسه هما الجزء الإلاهى (فالله مصدر الحكمة) — ومن عرف نفسه معرفة حقيقية كاملة أيقن أن خيره فى ترقية عقله وتفكيره وإعلاء نفسه والامتناع عن كل الملاذ الجسمية التى تهدد صحة وسلامة نفسه — فالأشياء ليست فى حد ذاتها طيبة أو رديئة بل إن طيبتها أو شرها يتوقف على طريقة استعمالها فالمخدر فى الدواء الطبى للمريض خير ولكن نفس المخدر لغيبوبة العقل واللذة الجسمية شر وأى شر فالفضيلة أو الحكمة ليست عبارة عن مجموعة قواعد يجب أن يحفظها الإنسان عن ظهر قلب ويتبعها وبذا يفوز بالسعادة بل هى النفس النقية والذكاء المتأهب للتفكير فى مختلف المواضع الحيوية

التى لا نهاية لها لإيجاد حل عملى صالح لكل منها ويقول سقراط إن الفضيلة « هى علم معرفة الخير من الشر» والإنسان الفاضل من كان كفأ لمعرفة الخير وعمل الخير فى غير تردد أو تصنع

فالفضيلة إذن واحدة وجميع أنواع الفضائل المختلفة إن هى إلا أوجه التفكير الصالح فى مواضيع الحياة المتعددة وإذا كان سقراط لم يخط تقسيما شاملا للفضائل فقد خص بعضها بالذكر ولعلها أهمها فالفضيلة الأساسية هى التفكير الصحيح المنزه أى الحكمة وهذه فى علاقتها بالإرادة تنتج فضيلة الشجاعة وفى علاقتها بالأحاسيس والمتع الجسمية تنتج فضيلة الاعتدال وفى علاقتها بالناس تنتج فضيلة العدل وفى علاقتها بالله تنتج فضيلة التقوى وهذه هى الخمس فضائل السقراطية » .

والعدل هو المعرفة الصحيحة للقواعد التى يجب أن نتبعها فى علاقاتنا مع بنى جنسنا ويستلزم ذلك معرفة القوانين التى تنظم علاقة الناس ببعضهم ولكن أى القوانين ؟ لا يقصد بها القوانين التى تسنها الدولة فقط بل القوانين غير المكتوبة أيضاً وهذه قوانين طبيعية إلهية أى قوانين وحى الضمير الحى النقى والدليل على أنها إلهية أبدية أنها تتضمن جزاءاتها إن

خيراً نفير و إن شراً نشر دون قوة تشريع مكتوب يفرض شروطها و ينص على عقاب مخالفيها و بالرغم من ذلك فهى توحى للانسان أن تكون أعماله طيبة تجاه الجميع و بأن لا يقابل السوء بمثله وعلى أساس القانون الطبيعى وضع سقراط أساس المساواة بين الرجل والمرأة وقال إن الاسترقاق لا يستند إلى أساس أدبى كما رفع من شأن العمل ومقت البطالة والكسل .

و إذا كان العدل ألزم الفضائل الفردية للحياة الاجتماعية فهو صفة أكثر لزوما للمسئولين عن الصالح العام وعن إدارة الأداة الحكومية ولكل من طمح إلى وظائف الحكم و إلى مرتبة الأمر والنهى فهو أحوج الناس لصفة العدل ولن تحيا الدولة حياة سعيدة إذا ضاعت فيها الفضيلة و بخاصة لمن بيدهم مقاليد الأمور حتى ولو استكملت وسائل العظمة الأخرى من بناء الحصون المسلحة والأساطيل الضخمة و إنتاج الذخائر وزيادة عدد السكان وكيف يتسنى لأولى الأمر أن يتوقعوا الفضيلة من الشعب إذا كانوا هم بعيدين عنها — والسياسة فى نظر سقراط علم من العلوم ولا يمكن أن نُشيِّد العلم على أسس القوة والإرهاب أو على الاستسلام وترك الأمور تسيرها الصدف العمياء والسياسة

كما يجب ألا يشتغل بها سوى أنضج العقول وأنقى النفوس — فالسياسى الحقيقى فى نظر سقراط لم يكن قد وجد بعد ، إذ عنده أن السياسى هو الذى يعرف مهمته السياسية بالمعنى الفلسفى أى الذى يشيد أسس كيان الدولة ونموها على الحق والمثل الأعلى لا على مبادئ الفائدة المادية .

ومن عامل نفسه بالعدل فقد اعتدل أما من تطرف فقد ظلم نفسه ولا يعتبر سقراط الامتناع عن التطرف فى الاستمتاع بالملذات لمجرد المحافظة على الصحة أو مجرد التضحية بشهوة لإمكان التمتع بشهوة أخرى فضيلة — بل يرى أن الاعتدال المبنى على الفضيلة هو صفة التفكير الصحيح الذى يهدى الإنسان إلى الامتناع عن كل ما هو ليس جديراً بالانسانية والرغبة عن كل ما يتعارض مع النضوج الروحى والعلو النفسانى — أما من استسلم لشهوة ما وأخضع نفسه لملاذها فقد فقد حريته الأدبية لأنه يصبح أسيراً لتلك الشهوة — وإذا فقد الناس حريتهم الأدبية فقدت الدولة حريتها — ومن أسوأ ضروب الجهل أن يعتقد الإنسان أن الترف والتمادى فى الملاذ هو السعادة إذ لا يمكن أن تتفق السعادة مع العبودية — فالسعادة الحقيقية هى

الاقتراب من الكمال بكل ما أوتى الإنسان من قوة تفكير وقوة إرادة وفى هذا قال سقراط :

« يعشق بعض الناس الكلاب أو الجياد الجميلة أو الطيور
« الرشيقة — أما أنا فأجد سعادتى فى الحصول على أصدقاء »
« مكرمين ومتقنى فى أن أرشدهم إلى سبل الفضيلة وأسمى »
« سعيهم فى الحصول على لذة العلوم ومن الخطأ أن يقال إنه »
« ليس للفيلسوف متعة ، بل إن متعة الفيلسوف لا يفهمها غير »
« الفيلسوف » .

فالسعادة هى فى إعلاء النفس ورفع المدارك والثقافة وفى معاونة الآخرين على الوصول إلى هذا الهدف ولا يقصد بالاعتدال الحرمان من كل المتع الجسمانية بل يقصد التمتع بها بقسط معتدل لا يتعدى ضرورة الحياة الدنيا على أن تكون دائماً الكلمة العليا فى تحديد هذا القسط للعقل والتبصر والإدراك لا لرغبات الجسم

وبجانب العدل والاعتدال يجب أن يتصف الإنسان بالتقوى ولا غرابة فى ذلك فقد اعتقد سقراط أن مهمته فى الحياة كفيلسوف كانت متممة لمهمة إلهية اختارها لنفسه فهو لم يؤمن بالقوة الإلهية فحسب بل اعتقد أن واجبه يقضى عليه بتعريف الآخرين لتلك

القوة كما اعتقد أن روحا غير منظورة قد لازمته لتحذره وتقيه من الأخطار التي كانت تهدده . أما الشجاعة الحقيقية فهي في نظر سقراط فضيلة وليست مجرد مزاج طبيعي غير خاضع للتفكير — ولا يمكن اعتبار الإنسان أو الحيوان الذي لا يهاب ولا يخشى أي شيء بصفة مطلقة شجاعا بل نسميه مستهترا أو مجازفا أو مخبولا إذ لو صح اعتبار هذا الاستهتار شجاعة لكان الطفل الذي لا يفطن للخطر المحدق به لجهله أشجع المخلوقات وفي حين أن المجازفة كثيرة إلا أن الشجاعة المبنية على الإدراك والعقل المستنير قليلة نادرة .

وفي حالة الخطر المحدق قد يتخلق الإنسان المفكر بإحدى صفات ثلاث — فإما أن لا يهتم بالخطر ويقدم عليه كأن لم يكن موجوداً وهذه صفة تميز الأبطال في ساحة القتال — أو أن يفكر بعض التفكير محاولا تفادي هذا الخطر — أو أن يدرك الخطر تمام الإدراك ولا يبالي به ويحتقره طالما أنه لا يؤثر على الفضيلة وهذه شجاعة الفيلسوف الذي يؤثر التعرض لأي خطر مهما كان عن إتيان الرذيلة .

مهد سقراط للبشرية بهذه الفضائل فكرة حياة كاملة

تتجه نحو إتمامها جميع العقول البشرية بالتفكير الحر رغبة فى الطيبة وحباً فى الخير العام بمجهود عقلى ونفسانى يشترك فيه الجميع دون تفرقة بين رجل أو امرأة وعنده أن رقى الحياة الاجتماعية لن يتم إلا عن طريق التعليم والتآلف والتضامن المبنى على العدالة الاجتماعية .

مبادئ سقراط الدينية

كانت الديانة اليونانية فى الواقع تفسيراً للقوى الطبيعية المختلفة من بحار ورياح وأمطار وحرارة . . . الخ وقد هالت هـذه القوات قدماء اليونان ولاحظوا أنها تارة مفيدة وتارة مضرة إلا أن الإنسان بغريزته يتأثر بالسيئ أكثر مما يتأثر بالمفيد فمثلا منظر رجل كسيح بائس فى أحد الميادين الحديثة لا شك أنه يستلفت أنظار المارة أكثر مما تستلفته المئات من الرجال والنساء الذين يرفلون فى متع الحياة ونعيمها — لذلك أراد اليونانى القديم أن يتقرب من هذه القوى ويلتمس خيرها ونعيمها وفى نفس الوقت يأمن شرها وغدرها فانتهى به بحثه وتفكيره إلى تنصيب رب أو روح لـكل قوة من هذه القوات

الطبيعية وبذا تخيل له أنه قد أخضع هذه القوات إلى آلهة أو أرواح كفيلة بإغداق الخير إذا ما رضيت وقادرة على الانتقام إذا ما أغضبته — ومن هنا كانوا يعتقدون أن الكوارث الطبيعية التي تنزل بهم كالسيول الجارفة أو العواصف الشديدة تعزى إلى غضب آلهة هذه القوى ولذلك كانوا يلجأون إلى تقديم القرابين والتوسلات إليها — وإذا ما أعيتهم الحيلة وطال الانتظار فإنهم لا يقنطون بل كانوا يطلبون إلى أحد الآلهة الأخرى أن يتوسط لدى زميله الإله الغاضب ومن ذلك نرى أن اليوناني القديم في حالة الشدة والمحنة ما كان ييأس أو يقنط بل إنه كان يولد في نفسه الأمل ، فيرجو ويتوسل بغية تحسين حاله أو إزالة شدته وسواء أكانت هذه الاعتقادات مبنية على أساس صحيح أو خاطئ فإنها لا شك قد ولدت في روح الأغريقي الأمل وهو من أهم العناصر اللازمة للتقدم في الحياة .

وكل الظواهر الطبيعية من أنهار وجبال ورياح وشمس ونوم وموت قد حُولت جميعها إلى عناصر مقدسة يمكن إرضاؤها واكتساب عطفها . كذلك فكر قدماء اليونان في عواطف

الإنسان من حب وغضب وخيال وحكمة وعشق للموسيقى والجمال وتساءلوا كيف تنشأ هذه العواطف وما كنهها وما الغرض منها وانتهى بهم الأمر بأن مثلوها بالقوات الطبيعية فهناك آلهة لكل من الجمال والحكمة والحب والحفظ وغيرها .

واعتقد اليونانيون أن هذه الآلهة لم تكن مجرد قوات روحية خيالية بل كانت مخلوقات بشرية تشبه الإنسان ، بيد أنها أرقى وأعلى منه وأنها عاشت فى عصور غابرة على الأرض مثلهم وأن نسلها هم القبائل اليونانية وكل قبيلة يونانية تنتسب إلى إله أو بطل من هؤلاء الأبطال — وقد كانت هذه الآلهة تسيطر على الحياة الاجتماعية وبالرغم من عدم وجود كنيسة فى الدولة اليونانية القديمة بالمعنى الحديث فقد كانت الديانة جزءاً لا يتجزأ من الدولة ومن الهيئة الاجتماعية اليونانية كما كانت ديانة اليونانيين ناحية من نواحى حياتهم السياسية فالمغامرة فى الحرب والتوسع فى الاستعمار كانت جميعها تحتاج إلى موافقة وتعضيد الآلهة وفقاً لمعتقداتهم .

وقد كان من نتائج هذه العقائد ومن ضعف الطبيعة البشرية للإنسان أن شغلت «معرفة المستقبل» والتكهن بما يحمل فى طياته

فكر قدماء اليونان إلى حد كبير — وقد كانوا يلتمسون معرفة المستقبل ومكنوناته التماساً ومن ذلك نشأت عدة خرافات — فاذا ما صادف اليونانى وهو ذاهب فى طريقه لقضاء مهمة خاصة طيرا معيناً أو سمع كلمة عرضية من شخص آخر كان يتفاءل أو يتشاءم وفقاً لهذه المصادفات غير المتوقعة وقد كانت قراءة المستقبل والتكهن به من أهم مشاغل الحياة اليونانية حتى فى أرقى الأوساط المتعلمة — وكان كل فرد يذهب إلى العرافين لاستطلاع رأى الآلهة فيما يعتزمه من أعمال شخصية أو عائلية أو لمعرفة من سرق متاعه — ولم يقتصر هذا الأمر على الأفراد بل كانت الدولة نفسها تسترشد بمثل هذه السبل فى أعمالها الحربية وغيرها .

وقد كانت علاقة اليونانى القديم بتلك الآلهة علاقة خارجية شكلية وليست علاقة روحية مستقرة فى القلب كما أن قرابينهم كانت عبارة عن ضحايا تقدم للآلهة لاكتساب رضاها وكانت أشبه بعطايا يُنتظر لها مقابل وأن التقصير فى تقديمها يوجب غضب الآلهة ، ولعل هذا دليل آخر يثبت أن العلاقة بين اليونانى وآلهته كانت علاقة خارجية لا دخل للشعور الروحى فيها حتى أن الخطيئة كانت تعتبر فى نظرهم وصمة خارجية مادية يمكن محوها

باتباع طقوس شكلية معينة لا كما نعتبرها نحن الآن كألم روحي نفساني يسبب للإنسان الخاطىء وخز الضمير ولن يرتاح ضميره وتهدأ نفسه إلا إذا تضرع لله واستغفره وشعر فى قلبه وضميره أن الله قد عفا عنه .

ومن ذلك نرى أن النقطة الجوهرية فى عقيدة اليونانى القديم أنه كان يحجم عن الخطيئة خوفا مما يعقبها من غضب الآلهة وبالتالى العقاب الفعلى حتى لقد نشأ عندهم المثل المتداول « الدم ينادى الدم » أى من قتل يقتل بخلاف شعورنا نحن إزاء الخطيئة من الندم عليها وعدم العودة لاتباعها لمجرد أنها خطيئة لا يجب أن نأتيها لقبحها لا لمجرد الخوف والوجل من العقاب الذى يتبعها .

كذلك من أهم المسائل التى يجب أن تتناولها الديانات ظاهرة الموت وكل ديانة لا تبحث هذه النقطة لا يمكن أن تستقر طويلا فى قلوب معتنقيها .

أجمعت العقائد اليونانية القديمة أن الأرواح تعيش بعد الموت إلا أن معيشتها كانت أشبه بظل أو خيال شبيه بصاحبه عندما كان على قيد الحياة وبديهى أن هذه العقيدة ما كانت تكفل لهم أى راحة أو طمأنينة بيد أن بعض خرافاتهم قد حدثتهم

عن مكان سعيد للأبطال والأبرياء وآخر تعس للمجرمين والخاطئين إلا أن فكرة النعيم والجحيم وفكرة أن الحياة الدنيا كلها متاعب وتجارب تنتهي بالموت الذي يعقبه نعيم وجنات للأبرياء كانت كلها أفكار غريبة ما كان يدركها العقل اليوناني القديم — ومن هنا نشأ تعلق اليونانيين بالحياة والتمتع بها جسما ونفساً وتجميلها إلى أقصى درجة ممكنة ولذلك أدخلوا في حياتهم كل ما هو جميل وبهيج سواء من وجهة الشكل أو المعنى وحاولوا أن يجعلوا من حياتهم نعيما مقيما وفي الوقت نفسه كان يطمح كل منهم إلى إتيان الأعمال العظيمة التي تخلد ذكراه بعد الممات .

كذلك كان اليوناني يخصص جزءاً من حياته للعلم والدرس حتى إذا ما طعن في السن وفقد مقدرته على التمتع بما يصاحب الشباب وجد العزاء في المناقشات العلمية والفلسفية وقد كان كرههم لكبر السن وهلعهم من الموت بمقدار تعلقهم بالحياة والتمتع بها كما كان عزاؤهم الوحيد لتحمل الموت هو تخليد الذكرى بعد الممات — وكانت الديانة اليونانية تغذي الخيال أكثر مما تغذي الذكاء والتفكير وفي الواقع كان يرجع تمسك

اليوناني القديم بديانته إلى بهجة الطقوس الدينية وما كان يلازمها من أغاني ورقص وحفلات رياضية مختلطة تهز مشاعره وتملأ نفسه بالحركة والانتعاش أكثر مما كان يرجع إلى الاقتناع بعقائد تلك الديانة . وحتى الحفلات الأولمبية وما كان يحيط بها من روعة وجمال كان أساسها ديني وطقوس دينية خرافية

هكذا كان شأن الديانة اليونانية وعقائدها وطقوسها التي نشأ فيها سقراط ولما تحكّم عقله وتفكيره وشعوره الداخلي في شئونها دون التأثر بالخيال أو الإغراق في الأشكال الخارجية والبهجة الملابسة لها نقدها دون مبالاة كمجرد عقيدة سكرية قلبية

فمن هذا الجو أراد سقراط أن ينتقل مواطنيه من التبحر في الخرافات حباً في الأشكال الخارجية إلى الشعور الداخلي القلبي وإلى العقيدة بالإله الواحد والاتصال به عن طريق التفكير والتأمل والحياة الروحية وقد ذكر « اكسنوفان » أن سقراط بدأ تدريسه لتلاميذه ببحثه موضوع وجود الله والحكمة الربانية وقد استند في ذلك إلى برهانين أولها العلة السببية وثانيهما العلة النهائية .

وُهب الإنسان الذكاء وقوة التفكير ولا بد أن يكون الذكاء البشرى والتفكير الإنسانى مع عظمته واحتمالاته مستمداً من ذكاء أعلا منه بكثير وهو الذكاء الذى خلق العالم إذ لا يمكن أن يصدر الذكاء من عدم الذكاء وهذا هو برهان السببية .

أما البرهان الثانى فهو أن كل شىء فى العالم يميل إلى الإصلاح من شأنه ويناضل لتحسين حاله ، كما أن لكل شىء غرضا وهدفاً فقد هُيئت أعضاء جسم الإنسان تهيئاً لا يمكن أن يعلو عليه لأداء وظائفها وإتمام الغرض الذى من أجله خلقت ، وهناك فائدة عالمية أى فائدة من جميع الأشياء فى تسخيرها كلها لفائدة الإنسان وهذا بلا شك عمل العناية الإلهية

واعتقد سقراط بوجود الإله الواحد فكما أن هناك عالم واحد ، هناك إله واحد موجود فى جميع الوجود كوجود الروح فى الجسم وهو الذى خلق الإنسان والحيوان والأجرام السماوية أى العالم بأسره — حقيقة أن سقراط استعمل فى بعض الأحيان كلمة الآلهة فى صيغة الجمع ولكن المعروف أنه فى العصور القديمة كانت كلمة الآلهة تستعمل للتعبير عن جميع الكائنات المقدسة والسماوية — وإله سقراط أبدى وعظيم « وهو يرى كل شىء

ويسمع كل شيء وموجود في جميع البقاع ويسهر على كل شيء في نفس الوقت » .

وبلغ إيمان سقراط بالعناية الإلهية لدرجة أنه اعتقد بإمكان الوحي وإمكان وجود علاقة بين الله وبعض الناس وبإمكان وجود صوت خفي يشعر الإنسان بما سيحدث ، وقد سماه سقراط العلامة الإلهية أو الصوت الإلهي ، وباح سقراط بأنه يسمع هذا الصوت ويشعر به وهذا ما سماه العامة « شيطان سقراط » Demon de Socrate

بدت هذه العقائد والأفكار غريبة في نظر الآثنيين لدرجة أن إحدى الاتهامات التي من أجلها قدم سقراط للمحاكمة كانت أنه لا يؤمن بآلهة أثينا .

اتهام سقراط ودفاعه وإعدامه

اختلف سقراط عن مواطنيه في تفكيره وفي آرائه وفي خلقه وأعماله ، فظهرت محادثاته لهم غريبة — كما بدت لهم حياته — ناقش سقراط شتى المواضيع ، ونقد كل ما بدا له أنه يستحق النقد بصيغة السخرية الممزوجة بالجد ولم يدرك أحد

عمق تفكيره وحدة نظره سوى نفر قليل وقد تظاهر سقراط دائماً بالجهل ولكن تبين للغير أنه موقن فى نفسه بأنه أحكم من مواطنيه جميعاً وقد صاغ سقراط حكمته فى نظريات بدت للآثنيين غاية فى الغرابة فلم يفقهوا مثلا أن « الشرير لا يفعل الشر مختاراً » ، وأن « المعرفة هى الفضيلة » ، وأن « من يعرف كيف يأمر هو الذى يصلح للرياسة دون غيره » ، وأن « اختيار الحكام بالاقتراع مهزلة » وما إلى ذلك من الحكم السقراطية — لقى سقراط الويل لأنه أراد أن يعلم مواطنيه أكثر مما كانوا على استعداد لفهمه وهضمه ولذلك سببت تعاليمه هذه وحركته من مواطنيه الحكم عليه بالإعدام ولكنها أكسبته تخليد ذكراه أبد الدهر وانتشار تعاليمه فى أنحاء العالم أينما حلت المدنية »

وفى سنة ٣٩٩ قبل الميلاد عند ما بلغ سقراط السبعين من عمره عمد ثلاثة من مواطنيه ذوى النفوذ إلى الإيقاع به والتخلص منه بقتله عن طريق غير مباشر فاتحدوا فى الشر وقدموا ضده عريضة اتهام مطالبين الحكومة باعدامه وهؤلاء الثلاثة هم : مليتوس الشاعر ، ولكون الخطيب ، وأنيتوس الدباغ ؛ وقد احتفظ بهذه العريضة حتى الجيل الثانى بعد الميلاد ضمن

محفوظات معبد « سيبل » .

اتهم هؤلاء الثلاثة سقراط من الناحية التعليمية بإفساد النشء الآثيني عقلا وخلقاً بواسطة محاوراته وتعاليمه ومن الناحية السياسية لأنه نقد نظام الحكم الآثيني — ومن الناحية الدينية لأنه لا يؤمن بآلهة أثينا ولهذه الأسباب فهو رجل خطر على الدولة « ويجب إعدامه » .

ولئن كان هؤلاء ومن على شاكلتهم قد أساءوا تفسير تعاليم سقراط فإن تخلقه كان بلا شك دائماً مشبعاً بالإخلاص التام لصالح الدولة وحرصه التام على احترام الدستور — ولم يقتصر تفوق سقراط بين الآثنيين على سرعة خاطره وذكائه المفرط وعلو نفسه وإخلاصه لمبادئه وشجاعته بل امتاز أيضاً بقيامه بواجباته كمواطن آثيني مخلص وبجندي شجاع دافع عن العدالة دون مبالاة بأي اعتبار آخر وعدم اكتراث بما قد يحيق به من شر من جراء مقاومة التعسف والظلم وقد نهج هذا السبيل متحملا تبعة أعماله إلى النهاية دون مقاومة قوانين بلاده وتقاليدها مقاومة إيجابية وليس أدل على ذلك من إطاعته للحكم الذي صدر بإعدامه دون معارضة أو محاولة للإفلات منه — وفي جميع

مراحل حياته كان يقابل كل نقد بصراحة كاملة مصراً على آرائه مبرهناً عنها بكل صراحة وقوة إرادة — فمثلا عند ما قال مليتوس أحد موقعي عريضة اتهامه أنه يمكن أن يرشد إلى بعض الشبان الذين كان سقراط ينصحهم بأن يتبعوا تعاليمه أفضل من اتباع نصائح آبائهم وأمهاتهم ، فهو بذلك يعمل على تشجيع الأبناء على عصيان والديهم أجاب سقراط فى حزم بأن الأفضل للمريض أن يتبع آراء الطبيب دون رغبات والديه .

قدمت هذه التهم لمحكمة مكونة من ٥٠٠ عضو انتخبوا بالقرعة فكان من بينهم بضع مئين من فلاحى وتجار وصناع أثينا اجتمعوا ليحكموا فى أعظم قضية عرفها التاريخ القديم ومن هذا يتبين للقارئ كم كان من العسير على سقراط أن يبرر مبادئه الفلسفية والميتافيزكية (ما فوق الطبيعة) أمام هيئة غريبة التشكيل كهذه الهيئة وقد روى أفلاطون عن سقراط أنه شبه موقفه من هيئة هؤلاء القضاة بموقف طبيب يتهمه طاه أمام جمعية أطفال قائلا لهم بأن هذا الطبيب قد أحدث بهم أضراراً بليغة تقضى عليهم وعلى الأطفال الأصغر منهم سناً إذ يعطيهم الدواء المر المذاق ولا يصرح لهم إلا بما يأكله المرضى بدلا من أن

يعطيهم ألذ الطعام كما يفعل بهم الطاهى فماذا يجيب الطبيب ؟ هل يقول للأطفال أنه لا غرض له فى كل ما يعمله بهم سوى حماية صحتهم وهل يصدقونه أو يدركون سمو قصده .

وفعلا كان كل ما قاله سقراط لهذه الهيئة عند ما وجهت إليه هذه التهم ينم عن الامتثال لتنفيذ القانون الآثينى الذى يحتم على المتهم أن يقدم دفاعه لهيئة المحكمة — قال سقراط « أيها الآثنيون لا تعتقدوا أنى أدافع عن نفسى لمحبتى لنفسى بل لإشفاقى عليكم لئلا تسيئوا إلى الله فى حكمكم علىّ ..... وقد يكون من بينكم من يتضايق منى عند ما يتذكر أنه عند ما كان فى موقف أقل خطورة من موقفى هذا قد توسل وتضرع وبكى إلى القضاء وقد اصطحب معه أولاده وأقاربه وأصحابه بغية إثارة عاطفة القضاء — أما أنا فلم أفعل شيئاً من هذا بالرغم مما قد أتعرض له من الأخطار . . . وأنى أعتقد أن الإنسان لن يفوز بالبراءة بمجرد توسلاته وأن واجب المتهم ألا يتضرع للقاضى بل ينيره ويقنعه فأنتم لا تجلسون هنا لتضحوا بالعدالة طبقاً لرغبة من أتقن التوسل إليكم بل لتقضوا بالعدل فى أمانة دينية وإذا ما غرتكم توسلاتى واضطررتكم لخرق حرمة واجبكم

كقضاة عدل فإنى بذلك أعلمكم الكفر » .

وقد نظر سقراط إلى تلك الهيئة كمجموعة أناس خاطئى الفهم لا يدركون خطورة ما هم فى صدده بعيدين عن الحق والحقيقة وكان يخاطبهم فى هدوء تام وعدم اكتراث أو هياج لدرجة أشعرتهم بأنه يعتقد بعلو مكانته عنهم وأنه يقاضيهم بدلا من أن يقاضونه ومما قاله « إن الرجل حقا من كان همه وتفكيره فيما إذا كانت أعماله عادلة أو غير عادلة لا من وجل من احتمالات الموت أو الحياة وكل من اختار لنفسه مهمة معينة باعتبارها مشرفة يجب أن يثبت فيها دون مبالاة بالخطر أو الموت فمن خشى الموت فهو بعيد عن الحكمة حتى ولو اعتقد أنه حكيم ... ولا يعرف أحد ما هو الموت وعما إذا كان الموت ليس بأعظم خير للانسان — ومع ذلك فالإنسان يخاف الموت كأنه واثق بأنه أشر الشرور وحقا أنه من الجهل المخجل أن نعتقد أننا نعلم ما نجهله — وهذا قد يكون وجه الفرق بينى وبين أغلب الناس وربما كنت من هذه الناحية أعقل منهم لأنى لا أنسب لنفسى ما لا أعرفه — أما ما أعلمه علم اليقين فهو أن الظالم أو غير المطيع لمن هم أفضل منه سواء أكانوا رجالا أو آلهة قد أهمل

واجبه وهذا هو الشر الذى أخشاه وأود أن أهرب منه» .

لم يدهش سقراط لصدور حكم القضاء بأنه مذنب بل دهش لأن هذا القرار صدر بأغلبية ضئيلة لا تتعدى بضعة أصوات وكما أن كبرياءه قد أكسبته قرار الإدانة فإن عدم خنوعه وتمسكه بكبريائه قد أكسبه قرار الحكم بالاعدام — إذ طبقاً للنظم الآثنية كان على المذنب أن يقترح العقوبة التى يعتقد أنه يستحقها ولكن إجابة سقراط عن ذلك كانت إجابة تنطبق انطباقا منطقيا على ما سبق ودافع به عن نفسه فقال : « ماذا أستحق عن سلوكى معكم ؟ لعمرى أنى أستحق المكافأة إن أردتم أن تعدلوا بل ومكافأة تلائمنى — فبالله ماذا يلائم رجلا مسكيناً صنع بكم خيراً وفى حاجة إلى الفراغ بحيث يخصص كل وقته فى إعطائكم نصائح مفيدة ؟ — الحق أنه لا يوجد أيها الآثنيون ما يلائمنى سوى أن تتكفل الحكومة بإقامتى فى دار ضيافة الدولة المعدة لأفاضل المواطنين [1] Prytanée ألم أحرز هذا الشرف بدرجة استحقاق أكثر من الفائزين فى المباريات

---

(١) باللاتينى prytaneum وقد كانت دار الدولة لضيافة أفاضل المواطنين الذين أدوا للدولة خدمات جليلة .

الأولمبية ؟ لأن هؤلاء الفائزين لا يجلبون لكم السعادة سوى في الظاهر — أما أنا فإني أعلمكم كيف تكونوا سعداء حقاً فضلا عن أن هؤلاء لديهم ما يعولهم — أما أنا فلا أملك شيئاً من حطام الدنيا — فإذا تعين علي أن أعلن عما أستحقه طبقا للعدالة فإني أقول لكم أني أستحق أن يحتفل بي في دار ضيافة الدولة أيها الأثنيون لا تتهمونني بالخيلاء لأني أحدثكم بهذه الصفة والباعث الحقيقي لما أقوله لكم هو أني لم أرتكب ظلما ضد أي شخص على الإطلاق . . . . . وإذا فرض وأردت أن أتفادى العقوبة التي اختارها لي ميليتوس (وهي الإعدام) فماذا أختار لنفسي ؟ هل أقترح فرض غرامة علي ؟ ليس لدي الوسيلة لدفعها ! هل النفي ؟ ربما توافقون — ولكن هل محبتي للحياة وتعلقي بها قد أعمت بصيرتي حتى أعتقد أن الأجنبي يحتمل طريقة معيشتي ومباحثاتي في حين أنه عسير عليكم وأنتم مواطني أن تحتملوها ! »

هكذا كانت لهجة سقراط في دفاعه وفي اختياره لعقوبته وقد اعتبرها القضاء تهكما بل إهانة وتحدياً يجب أن يعاقب عليها بأشد العقوبات ، فصدر الحكم عليه بالإعدام ؛ وحتى في هذه اللحظة لم يغير سقراط من لهجته إذ قال لهم : سأخضع للموت

الذى حكمتم به على — أما من اتهمونى فسيخضعون لحكم الظلم والعار اللذان تقضى بهما الحقيقة فلى جزائى ولهم جزاؤهم ومن يدرى فربما هذا هو المقدر والمحتوم أن يحصل وفى نظرى أن كل ما يحصل فهو للخير » .

وظل سقراط فى تفاؤله وفى استسلامه للعناية الربانية وكان آخر ما قاله لهيئة القضاة « إنى لا أحمل أى شعور سيىء سواء ضد من اتهمونى أو ضد من حكموا على بالرغم من أنهم لم يقصدوا بى خيراً بل سعوا إلى إيلامى مما كان يستدعى الشكوى من جانبى وليس لى عندكم سوى ملتمس واحد وهو أنه عند ما يكبر أطفالى إذا لاحظتم أنهم يسعون وراء الثراء أو أى شىء سوى الفضيلة فعذبوهم كما عذبتكم أنا وإذا اغتروا بأنفسهم فبينوا لهم جهلهم حتى تكمر وجوههم خجلا وهذا ما أبغيه منكم فإذا فعلتم ذلك فليس لى ولا لأولادى سوى التحدث بعدلكم — والآن حان الوقت لأن نفترق فآخذ أنا طريقى إلى الموت وأنتم سبيلكم إلى الحياة ولا يعرف أحد إلا الله إذا كان حظكم أحسن من حظى أو حظى أفضل من حظكم » .

وفى اليوم التالى لصدور الحكم على سقراط سافرت سفينة

من أثينا تقل الهيئة الدينية الخاصة بإحياء ذكرى ميلاد ربه ابللون Apullon وكان القانون لا يسمح بتنفيذ حكم الإعدام أثناء هذه الرحلة المقدسة فانتظر سقراط عودة هذه السفينة لينفذ فيه حكم الإعدام وقد طالت مدة انتظاره حتى بلغت ثلاثين يوما — وبالرغم من انتظاره للموت المحقق طيلة هذه الأيام العديدة لم يُظهر سقراط أى اضطراب أو انزعاج بل ظل يزاول أحب الأعمال إليه وهى استقبال المقربين منه ومناقشتهم فى المسائل الفلسفية ووصلت به رباطة الجأش أن ألف نشيداً لأبللون . . . وذات يوم حضر له فى الصباح صديقه كريتون Criton فى السجن وعرض عليه أن يهرب من أثينا دون تعرض لأى خطر وبأسرع السبل — وقد كان كريتون غنياً مثرياً وعمل كل ما فى وسعه ليشترى ضمائر من بيدهم سلطة تسهيل هروب سقراط وضغط على سقراط ليهرب معه إلى تراقيا Thracia حيث يلتقى بأصدقاء أوفياء وتوسل إليه بأن يواصل حياته ويتفادى نفاذ هذا الحكم المروع حماية لشرف تلاميذه من العار الذى لا بد أن يوصموا به عندما يقال عنهم أنهم تركوا أستاذهم يهلك ظلما ورأفة بأولاده الذين يجب ألا يحرمهم من معونته ونصائحه .

فأجاب سقراط بقوله : « يا عزيزى كريتون ! من العسير أن أبالغ فى تقديرى لرجائك لو أنه انطبق على العدل ... ويجب أولا أن نفحص ما إذا كان واجبى يسمح لى بأن أفعل كما تقترح أولا — فليس بجديد اليوم أنى لا أصغى إلا لصوت التعقل والتبصر ولا يصح أن أتخلى عن المبادىء التى ناديت بها طيلة حياتى إذا ما حل بى سوء الطالع فالآن أرانى أرى هذه المبادىء بنفس العين وهى تبدو لى بنفس القوة ولها منى نفس الكرامة والاحترام كما كانت من قبل سواء بسواء .

وليس الغرض أن يعيش الإنسان وكفى بل يجب أن يحسن العيش ؛ وتساءل سقراط عما إذا كان يحق له أن يتفادى العقوبة التى حكم عليه بها إذا كان لم يفلح فى إقناع مواطنيه بأنها عقوبة ظالمة وهل يلجأ إلى المبدأ الذى أجمع عليه جميع اليونان تقريباً بأن يقابل السوء بالسوء وأف يقابل ظلم مواطنيه الآثمين بعمل الظلم ؟ أوليس الظلم بشر وعار على من ارتكبه وبذلك أجاب سقراط كريتون إجابة قاطعة بأنه لن يرتكب الظلم مطلقاً حتى ولو كان هو ضحية ظلم الآخرين — وقد رفض سقراط بتاتاً مخالفة قوانين بلاده أو الاخلال بواجبه كمواطن

إذ ختم حديثه مع كريتون فى صدد هروبه بأن قال : « دعنا يا عزيزى كريتون من هذه المناقشة إذ يجب أن نسير فى غير وجل حيث يقودنا الله » .

وبعد مضى يومين من هذا الحديث دخلت السفينة المقدسة ميناء بيريه وبذلك تحتم تنفيذ حكم الإعدام على سقراط فى اليوم التالى — وللمرة الأخيرة اجتمع حوله أصدقاؤه وفى مقدمتهم كريتون — وقد سجل أفلاطون للعالم من بعده هذا المنظر الأخير الرائع وهو أن سقراط كألوف عادته رابط الجأش هادئاً سموح الوجه بداعباً لأصدقائه فى رقة موجهاً لكل منهم كلمة عطف ومحبة — وأراد أن يختم رسالته الفلسفية الطويلة بأن يبين لهم ويقدم البرهان القاطع بأنه ولئن كان الجسم يهلك ولكن الروح خالدة وذكرهم بأنه يأمل أن يلقى بعد هذه الحياة الدنيا مكافأة على فضيلته كما أن الأشرار يلاقون جزاء شرهم .

« فليطمئن كل من حرم نفسه أثناء حياته بالملاذ والمتع »
« الجسمانية بوصفها غريبة عنه ومصدر الآلام — وليطمئن من »
« أحب لذة العلم ومن زين روحه بالأكاليل الملائمة لها »
« كالاعتدال والعدل والقوة والحرية والحق — ومن كانت »

« هذه صفاته يجب أن ينتظر ساعة رحيله إلى العالم الآخر كما »
« لو كان مستعداً للسفر بمجرد ماينادي القدر فيما يختص بي فقد »
« نادانى القدر اليوم ... والآن أذهب لأستحم لأنى أعتقد أنه »
« من الأفضل أن أغتسل قبل أن أتجرع السم لكى أعفى »
« النسوة مشقة غسل جثتى فيما بعد » .

قال سقراط ذلك ثم دخل حجرة مجاورة واغتسل وعند عودته أدخلت عليه النسوة من عائلته كذلك أولاده فتحدث إليهم بعض الوقت ولما انصرفوا عاد سقراط لأصدقائه ولكن لم يطل مكثه معهم .

وبعد قليل أحضر كأس السم وبمجرد أن رأى سقراط حامل كأس السم سأله عما يجب اتباعه — فأجابه الرجل بأن يتمشى عقب تجرعه السم حتى يشعر بالتخدير فى أرجله وعندئذ يرقد على فراشه فيأتى السم بمفعوله من تلقاء نفسه .

تناول سقراط كأس السم دون أن تظهر عليه أى علامة من علامات الانفعال أو يتغير لون وجهه أو سيماه — وشرب ما فيه من سم قاتل بكل هدوء وبشاشة وحتى هذه اللحظة تمكن أصدقاؤه المحيطون به من حبس دموع أعينهم — أما

بعد أن انتهى من تجرع السم فلم يتمكنوا من ضبط نفوسهم وبكى أفلاطون بكاء مراً وكان قد سبقه فى البكاء كريتون ، أما أبلودور Apollodore الذى كان قد سبق الجميع فى البكاء فقد بدأ يصرخ ويولول وينتحب لدرجة تأثرت منها قلوب الحاضرين ماعدا سقراط الذى قال لهم : « ما أنتم به أيها الأصدقاء ، ألم أبعد النسوة من هنا كى نتفادى ما أنتم عليه الآن قلت لكم إن الأفضل أن يختم الإنسان حياته بكلمات طيبة فاقلعوا عن ذلك واظهروا شيئاً من الثبات .

أخجلت هذه العبارات أصدقاء سقراط وأمسكوا عن البكاء وبعد أن تمشى سقراط قليلا بدأ يشعر بثقل رجليه فرقد على فراشه طبقاً لتعليمات حامل السم الذى اقترب منه وضغط بشدة على قدميه فلم يشعر سقراط بهذا الضغط وكذا ضغط على فخذيه فتبين أن الموت سرى إليهما وإن جسمه كان يبرد شيئاً فشيئاً وعندئذ فاه سقراط بآخر كلماته بأن قال لكريتون « نحن مدينون بديك لاسكولاب Eacullape فلا تنسى أن تفى بهذا الدين ؛ فأجاب كريتون بأنه سيفعل ذلك سائلا سقراط عما إذا كان لديه شيئاً آخر يقوله لهم ولكن سقراط لم يجبهم بشىء ثم

بدت منه رعشة فغطى حامل السم جسمه بأكمله وقفل عيناه وفمه .

***

هكذا مات سقراط مؤمناً بالعناية الإلهية و بقوة الحق التى لا تعلوها قوة و بأن الخير لا بد أن ينتصر ولو بعد حين وأن الحقيقة لا يمكن أن تخطئ — وإذا كان سقراط قد مات فإن آراءه لن تموت وقد عرف سقراط ذلك وكان هذا سر موته باسماً .

المراجع

1— Philosophie Morale et Politique
Par
P. Janet.

2— Histoire de la Philosophie
Par
Alfred Fouillée.

3— Socrate
Par
Paul Landormy.

4— The Greek view of Life
By
G. Lowes Dickinson.

5— The Story of Philosophy
By
Will Durant.

6— A History of Political Theories
By
William Archibald
Dunning.